الكتابة عن العنف

[original: [Writing about Violence](https://merip.org/2018/04/writing-about-violence/)]

روسبيليندا كارديناس، هبة أبو عكر

[*Middle East Report* 284/285 (Winter 2017)]

ترجمة: م.ف. كَلْفَت

لا نستطيع أن نحدد بالضبط من أين جاءت فكرة تدريسنا بشكل مشترك دورة مقارنة في السياسة المعاصرة في الشرق الأوسط وأمريكا اللاتينية، إلا أننا نتذكر جيدا ما ترتب على ذلك القرار المبدئي الذي أخذناه في أواخر ٢٠١٥. في البداية كانت هناك الإثارة التي تصاحب إحساسا ناشئا بوجود إمكانية. وإذ كنا نراجع أدبيات المجال ونحن نصمم الدورة التعليمية، وجدنا روابط واتصالات عديدة سمحت لنا بوضع أمريكا اللاتينية والشرق الأوسط موضع التركيز معا. لكن المقرر لم يكن يطمح فقط إلى إيجاد الصدى والتشابه، فطورناه بحيث يستكشف أيضا أوجه الاختلاف والانقطاع. ناقشنا دور الدولة في الجندرة، إذ يؤكد الناس في القطاع غير الرسمي حقهم في كسب الرزق في مصر وجمهورية الدومينيكان.[[1]](#footnote-0) وأملينا التفكير في الطابع العرقي للتنازع على الجغرافيا والذي يسم كفاح السوداوات ضد التكويش على الأرض في البرازيل وعمليات مفاوضة ومقاومة بناء جدار الفصل في إسرائيل وفلسطين.[[2]](#footnote-1) وتأملنا في أحوال الحداثة النفطية في دبي وڤنزويلا[[3]](#footnote-2) وناقشنا ما جرى في أعقاب المد الوردي في أمريكا اللاتينية والربيع العربي في الشرق الأوسط.[[4]](#footnote-3)

إلا أننا ونحن نستخرج صلات الربط الواعدة هذه تعين علينا مواجهة إدراكنا لحقيقة أن العديد منها مؤطر بخبرات العنف. فجأة، بدأ مقررنا يُقرأ كأنه قائمة بالكوابيس الدستوپية: مشاهد طبيعة مدمَّرة، أشكال مزمنة للإخضاع ذي الطابع الجنوسي، أنظمة عمل لا تزيد إلا استغلالية، استخراج شرس للموارد، دورات لا تنتهي من الحرب فيما يبدو. انقلبت إثارتنا الأولى تأملا متجهما.

ومع إدراكنا هذا الأمر، دخلنا الفصل الدراسي بإحساس يجمع بين الترقب والاستنفار. وكان الفصل يجمع بين طلبة من شتى الخلفيات والخبرات، فخلق لهم فرصة نادرة لاستكمال مهاراتهم والدخول في حوارات غنية ونحن نفكر مليا في قضايا عابرة للمنطقتين.[[5]](#footnote-4) صممنا تكليف مشروع مدته نصف العام الدراسي وكانت له نتائج مثيرة إذ عقد الطلبة روابط غير متوقعة. وكانت ملصقات مشاريعهم النهائية المثبتة على حوائط فصلنا تعرض القدرة الولّادة للتفكير المقارن: في الغرافيتي السياسي وفن الشارع في القاهرة وبوغوتا، وفي دور الدولة في فاڤيلات البرازيل ومخيمات اللاجئين بالضفة الغربية، وفي حروب المخدرات في المكسيك وأفغانستان، وفي تكتيكات حركات مقاومة نساء الزاپاتستا والأكراد، وفي التأثيرات الشتاتية على الموسيقى الرائجة في المنطقتين، وغيرها من المشاريع. وإلى ذلك، حظينا في هذه التجربة التربوية بمساحة فريدة أمكننا فيها إقامة حوارات جنوبية-جنوبية، خارج النظرة المركزية الأوروپية، عن الأماكن التي ندعوها أوطاننا.

وبينما كان أحدنا يتعلم بلهفة من الآخر، أدركنا نحن أن كلتينا كانت تعاني للكتابة عن العنف، وأن هذه المعاناة مرتبطة بموقعينا من عملنا وعلاقاتنا بالأماكن والناس التي كنا نكتب عنها. لذا، فبينما كان التركيز على العنف في البداية يلقي بظله على مقررنا، سمح لنا في النهاية بالانخراط في تأمل ذاتي نقدي حول ممارساتنا في البحث والكتابة. فإذا كان العنف متفشيا في مواقعنا الميدانية وأوطاننا، يكون العنف هو ما يلزم علينا الاشتباك معه. من هذا المكان نكتب.

ونحن إذ تؤثر فينا فداحة الوضع في الأماكن التي نسميها وطنا، ينعشنا الأمل الباقي في أن التفكير المشترك قد يأتي بمزيد من النظرات المتبصرة. يتأمل هذا المقال في بعض تحديات الكتابة عن عنف حميمي. يتأمل في صعوبة مساءلة الفصل بين الضحايا وصانعيهم، الخبراء وموضوعاتهم، وأوقات العنف وأوقات السلم. فتصف كارديناس معاناتها في الكتابة ضد صناعة الضحايا. وبالتحديد، فهي تناقش الخطورة السياسية الكامنة في محاولة التركيز ليس فقط على خسارة ومعاناة الأفرو-كولومبيين المهجّرين داخليا، وإنما كذلك على الإمكانات التي تمنحها للبعض خبرات الحرب ذاتها. أما هبة أبو عكر، فكشخص عاش الحرب الأهلية اللبنانية، تتأمل مشقة الكتابة عن عنف شخصي، والخوف المقيم من أن تعيده الكتابة عنه. وبينما تختلف مواقفنا، فإن هذا التأمل المشترك النابع من محادثاتنا في الفصل أمدنا بفرصة الوصول إلى نظرات متبصرة عديدة، تقوم كلها على ادعاء قوي بالقيمة الفريدة للمعرفة التي ينتجها من يعيشون في ظل العنف.[[6]](#footnote-5) ونحن مصرتان على فوضوية العنف إذ نجاهد لتمثيله بأشكاله الروتينية اليومية بينما نشهد في آن معا على المعاناة والعطاء المساهمين في خلق عوالم جديدة من ذات الأنقاض المتخلفة في مواقع الهدم تلك.

# من أمريكا اللاتينية: عن تحديات الكتابة ضد صناعة الضحايا

في وقت مبكر من هذا العام نشرت مقالا بعنوان “Thanks to My Forced Displacement” ["بفضل تهجيري"].[[7]](#footnote-6) وفيه أروي قصص حياة العديد من الأفرو-كولومبيين اللذين يعيشون في أطراف بوغوتا كأشخاص مهجرين داخليا (نازحين). كانت القصص التي كَتبت عنها محزنة بقدر ما كانت معقدة. وكانت تسير في طرق ملتفة من مكان المنشأ إلى المستقر الجديد. كان من كتبت عنهم مشبوكين في كل أنواع التحالفات والانتماءات داخل المشهد السياسي الكولومبي الشائك. وكانت رحلاتهم الصعبة ذات نتاجات متنوعة بالمثل. عاد بعض الناس إلى مدن ميلادهم ونشأتهم، ونزح بعضهم مرات متعددة، واستقر آخرون في بوغوتا. فقدت أسر كثيرة أفرادها بالابتعاد أو الموت، بينما نشأ غيرهم أو تكوّنت شخصياتهم وهم نازحون. سقط بعض الناس في شقوق نظام المساعدات الإنسانية الخاص بالدولة وفقدوا كل شيء، بينما أفلح غيرهم في الحصول على درجات جامعية، وتأمين وظائف، والظهور كنشطاء في وجه كل الصعوبات.

وإذ عملت شاقةً طريقي في هذه القصص، حاولت أن أعطي ما سقطتْ في أحابيله حياة المتكلمين معي من أشكال متعددة لعنف لا يتواني - الفقر، العنصرية، الجريمة - حقها من الظهور وأن أعطي الألم الذي انطوت عليه مواجهاتهم مع أشكال العنف المفرط كالتهديدات بالموت والتهجير والإخفاء حقها من التقدير. لكنني مرة تلو أخرى، وجدت أن قص حكايات تبرز الفرح والفاعلية يمثل تحديا خاصا. كنت أكتب مسودة يبدو أنها تؤكد على الانتصار فأحذفها على الفور، قلقة من احتمال تعرضي لتهمة التهوين من معاناتهم، أو أن تساء قراءتي باعتباري أحتفي بالبؤس، وهو أدهى وأمر.

عندما تلقيت تعليقات من مراجعي المقال، أدركت أن مخاوفي كانت مبررة. في البداية أدهشني التنافر. فالقارئ رقم واحد أخذه الحماس فاستعمل كلمات من قبيل "رصين" و"يخاطر نظريا" و"مستفز للفكر" وأوصى بنشر النص على الفور. أما القارئ رقم اثنان فثار واستعمل كلمات من قبيل "الذهول" و"عدم الراحة" و"القلق" كرد فعل على اقتراحي بعدم أخذ النازحين كضحايا عنف وحسب. اقترح القارئ رقم اثنان تنقيحات كبيرة لتصحيح نبرة النص ككل، والتي في نظره لم تقدر "المعاناة التي يخبرها النازحون." المشكلة، في نظر القارئ رقم اثنان، لم تكن ببساطة مشكلة تأويل، وإنما مشكلة أخلاقية بعمق حيث كان التأكيد على الجوانب الإيجابية للحياة الجديدة لبعض مصادري بمثابة إنكار لحجم المأساة التي حلت بهم ولملايين غيرهم من ضحايا الحرب الأهلية الكولومبية—الصراع الأطول في نصف الكرة الغربي، والممتد على مدار أكثر من خمسة عقود.

بمعنى من المعاني، كان التنافر بين ردي فعل القارئين منسجما مع صراعي أنا في كتابة المقال. تذكرت مراجعتي للمسودة، والتي احتوت في البداية وصفا لانتصارات الناس - الصغيرة والكبيرة - قبل أن أحذفها مخافة أن تغطي على قصص الفقد المؤلمة. مسارات حركة مصادري وعلاقاتهم وتداعيات أفكارهم قتلتها وصفا لكي أبين تعقيدها السياسي دون أن أختزلهم لا إلى ضحايا ولا إلى صناع ضحايا. لُفِت نظري على الأخص كي أعيد التفكير في عنوان المقال. والحال أن شاغل القارئ رقم اثنان كان أنني، بقولي "بفضل" ووصفي بعض الطرق التي فتح بها التهجير مسارات حياتية جديدة وشائقة لبعض النازحين، كنت أقترح أن الحرب لا بأس بها في نهاية المطاف. طالبني القارئ رقم اثنان بإعادة النظر في ترجمتي لعبارة "gracias a mi desplazamiento" مرجحا أنها قد توحي بالسببية - كأنني، بعبارة أخرى، أقول "الفضل يعود إلى" - لا بالامتنان.

وأنا أشتغل على نسخ منقحة، كنت أتعامل مع صعوبة الاختيارات واحدا واحدا، آخذة النقد بجدية وفي الوقت نفسه متمسكة بقناعاتي الشخصية حول الوعورة السياسية في تمثيل العنف. وفي النهاية، وبالرغم من اختلافنا الظاهر، اتفق القارئ رقم اثنان معي على أن الرصانة النظرية لم تكن المشكلة وإنما الأريحية السياسية. ووصلنا إلى أن السؤال الذي شغل كلينا هو من الخاسر والرابح - وما الخسارة والربح - من تمثيلاتنا للعنف. وبذلك الهدف الواضح في ذهني، واصلت التنقيح وأنا هنا أشارككم النظرات المتبصرة الأساسية التي وصلت إليها في سياق العملية.

في اللحظة السياسية الراهنة، من المهم جدا أن نعرّف بحذر ما نعنيه بالعنف. ويعني هذا أن نتحدى التعريفات السائدة، والتي لا تميز العنف إلا عند تجليه في مواجهات مشهدية، لا في أشكاله اليومية العادية والبنيوية. هذه التعريفات وبشكل روتيني تجعل الضحايا لامرئيين. في الحالة الكولومبية، مثلا، لا يميز التعريف الذي تجيزه الدولة للعنف سوى الضحايا الذين خبروا الفقد خلال السنوات المحددة بزمن الحرب الأهلية وعلى يد مجموعة محددة من صناع الضحايا—الجيش أو محاربي الغوار أو مجموعات مسلحة أخرى. والحال أن هذا التعريف يعجز عن إظهار كيفية تخبط حياة الكثيرين في أشكال العيش اليومي في العنف وتفاقمها بسببها. وهكذا، وبالرغم من كونها عاشت حياتها كلها في العنف، يعجز تعريف العنف المقبول من الدولة في كولومبيا أن يعترف بأن مارغريتا ضحية—وهي عاملة منزلية سوداء من ريف منطقة المحيط الهادي عاشت دائما في فقر بالغ ومؤخرا أخذ عنف الشوارع في بوغوتا ابنا من أبنائها. وهذا العجز عن الاعتراف بكل الضحايا سببه أن أدواتنا لتمييز وتسمية العنف تغفل القوى البنيوية من قبيل الفقر والأبوية والعنصرية وتقاطعاتها المميتة مع جغرافيات الحرب.

لم يكن غرضي من إظهار تعقيد مسارات حياة الناس أن أشكك في شرعية وضعهم كنازحين أو أقلل من معاناتهم. على العكس، كانت نيتي كشف مضمون التعريف نفسه، لإفساح المجال أمام الإقرار بوجود الأنظمة والبنى المتعددة، المطوّلة زمنيا، التي تُحدِث الإقصاء، وتمكن من الاستغلال، وتصيب بالجروح يوميا. وبينما أدرك وجود مخاطرة التهوين من خصوصيات المعاناة التي يخبرها الضحايا الذين مروا بمواجهات مشهدية مع فاعلين مسلحين، ألتزم بموقفي في جانب التوسع الملح لنطاق التعريفات الضيقة.

ثاني الدروس التي تعلمتها هو أن التمثيلات التي تستكشف تعدد استخدامات العنف وأشكال الاستجابة له مطلوبة بشكل ملح. وسد هذه الحاجة يقتضي وطء الأرض الوعرة الخاصة بإظهار ما هو أكثر من صناعة الضحايا. وهذه النظرة المتبصرة لم أخرج بها من العلماء بل من مصادري أنفسهم، والذين يؤكدون بشكل اعتيادي على فاعليتهم ويحتفون بانتصاراتهم. فلماذا يصعب للغاية مراعاة الطرق التي يمكن بها للعنف أن يكون ولّادا بقدر ما هو مدمر؟ ربما إن فعلنا، أمكن جلب الروابط المتولدة والإمكانات المستدعاة في عز الفقد إلى مجال الانتباه. ويمكن لهذا الانتباه أن يسلط الضوء على العوالم الآخذة في الاختفاء بينما يتيح أيضا الفرصة لتسخير العوالم البازغة في مشاريع سياسية مستقبلية. وعلى سبيل المثال، فبينما من المهم الاستمرار في الندب والتنديد بخسارة الأرواح والأرض التي تلت التهجير الجماعي في كولومبيا، أليس ملحا بالقدر نفسه أن نظهر الطرق التي يبدع بها النازحون هويات جديدة ومشاريع سياسية في أماكن وصولهم بل وأن نحتفي بها؟

إن المعاينة الدقيقة والحميمة لحياة من يعيشون في عنف هو في الظاهر أبدي يكشف عما هو أكثر من دمار وانقطاع. وبهذه الرؤية فمن الممكن رؤية أن العنف - بينما هو مفجع ومدمر - يمكنه أيضا أن يكون ذا قدرة تحويلية وإنتاجية. وهذه، بالطبع، منطقة محفوفة بالمخاطر. وأنا مدركة تمام الإدراك لمخاطر تقديم مادة خصبة لمبرري هذه الأشكال المتعددة من العنف وأرغب في البقاء يقظة لواجبي في مواصلة إدانة المعاناة التي تسببها. لكن هناك مخاطر أخرى كامنة في ترك سردية العنف بوصفه دمارا تستنزف كل معانيها واستخداماتها الممكنة.

في الصيف الماضي، عندما كنت في كولومبيا، سألت صديقتي دورا، التي استعرت منها عبارة "بفضل تهجيري"، أن تراجع مقصدها. وشرحت أن العبارة قد تترجم إلى معانٍ مختلفة - السببية مقابل الامتنان - وطلبت منها توضيح ما كانت تعنيه، لكنها كانت متمسكة بموقفها. فتحدثت في البداية بضمير الغائب، قائلة: "نعم، لا ينبغي أن نشكر المنفذين، لكن ينبغي أن نعترف بأنه لولا تلك الحرب، لما كنا هنا في بوغوتا نفعل ما كنا لا نتخيل أبدا أننا سنفعله، وما كنا لنكتشف أبدا قدراتنا القيادية." ثم انتقلت إلى نبرة أكثر شخصية: "بفضل تهجيري، قابلت أشخاصا جددا وتعلمت أشياء جديدة. لم أعرف أنني أستطيع الغناء، ولم أكن قد قابلت قادة سودا من مناطق أخرى. لم تكن لدي أي فكرة أنني قائدة، ولكنني لو لم أخض تجربة العنف تلك، ما كنت لأستغل إمكاناتي." في النهاية، أعتقد أن كلماتها تكشف أن اختيار إما إدانة العنف وإما الاحتفاء بالإمكانات التي كثيرا ما تُخلق بشكل غير متوقع أثناء لحظة انقطاع هو اختيار زائف. فإذا كان الهدف هو الصدق والتمسك بالأمل في القيام بالعمل الصعب الخاص بتمثيل العنف، لابد من مراعاة كليهما.

# من الشرق الأوسط: الكتابة من الداخل عن العنف

طيلة السنوات العشر الماضية كنت أدرس جغرافيات بيروت المتنازع عليها بعد نهاية الحرب الأهلية (١٩٧٥-١٩٩٠) دراسة إثنوغرافية وأكتب عنها بشكل نقدي. وبينما تناقش كارديناس عملية الكتابة المرهفة لجمهور أكاديمي عن انسدادات وانفراجات الحرب في كولومبيا، سأتأمل أنا هنا عملية التفكير والكتابة عن العنف فيما أسميه وطني. يهدف عملي، بالنهاية، إلى كشف أشكال العنف التي يتحملها الناس في جغرافيات ما بعد الصراع حيث تشكل الحرب خيالهم عن المستقبل بأكثر مما يشكله السلام. غير أني، من البداية إلى النهاية، كثيرا ما وجدت نفسي أسأل: ما غرضي وما أخلاقيات الكتابة الأكاديمية عن العنف المتداخل بشكل حميمي في حياتي؟ فكتاباتي عن الحرب والتهجير شخصية وسياسية معا.

تنشأ معضلات كثيرة عند التفكير والكتابة عن العنف. والكتابة عن العنف فيما أسميه دياري (وحيث دياري المفقودة الكثيرة) تدور، في خبرتي، حول ألم التنقيب عن تاريخ شخصي شكلته الحرب، والخوف من إعادة إنتاج العنف بالكتابة عنه. نزحت أنا وأهلي عدة مرات أثناء الحرب الأهلية اللبنانية. فقدنا بيوتا كثيرا، وتكفلت كل نوبة تهجير بمحو ذكريات عن فضاءات تعرضت لاحقا للقصف والحرق. أحد بيوت طفولتي ما زال يقف خاليا في بناية مدمرة، شاهدا على حياة ضاعت منذ زمن طويل وجيران راحوا منذ زمن طويل. وبينما أكتب هذه الخواطر من نيويورك، فإن عنف جغرافيات ما بعد الصراع في بيروت والمستمرة في تشكيل حياة الناس في المدينة يبقى عنفا شخصيا. فهو يمس أهلي وأصدقائي وأحبائي الذين يجعلون من بيروت بيتي. هذه الكتابة عن العنف من الداخل، إذن، تقتضي تعلم كيفية المشي على الحبال المشدودة الممتدة على الحدود بين مناطق اشتباكي الأكاديمي والسياسي والشخصي مع هذه المواقع. وهذه الحبال المشدودة تجعل الكتابة عن العنف من الداخل شديدة الإنارة لأنها تُكسب فهمي للعنف رهافة. وفي الوقت نفسه، فمن الصعب حقا فرز الشخصي من السياسي من الأكاديمي عندما تكون حياة المرء متداخلة مع هذه الجغرافيات. في كتابي [«من أجل الحرب القادمة: تخطيط حدود مدينة بيروت»] For the War Yet to Come: Planning Beirut’s Frontiers،[[8]](#footnote-7) أورد سردا إثنوغرافيا ذاتيا عن حياة أهلي في بناية سكنية في حزام جنوبي-شرق بيروت. في ٢٠٠٩-٢٠١٠، كنت أجري بحثا ميدانيا حول تمدين حزام بيروت الجنوبي. وقبلها بعام واحد، في مايو ٢٠٠٨، كانت المنطقة (وبقية بيروت) قد شهدت معارك شوارع أخذت المدينة إلى حافة حرب أهلية جديدة. وكان حي أهلي في حالة تمدد دائم مع الانتشار الحثيث للمباني في هوجة بناء لا نظير لها. ومع كل تطوير عمراني جديد، كانت المروج التي تفصل بنايتنا عن البحر المتوسط تمتلئ ببنايات خرسانية مغلفة بالشرفات المغطاة بالستائر. وفي هذه الأثناء، تطور نزاع حول إنشاء البناية المجاورة. فقد استيقظنا ذات يوم لنرى البناية قد زيدت طوابقها أكثر من الارتفاع القانوني. وبينما كان الجيران مستعدين لتجاهل الطوابق الإضافية، أغضبهم أن المطور العقاري يخطط للبناء فوق المنافع العامة المشتركة الخاصة بالحي، ليسد الرصيف ويتعدى على الحارة المسدودة المملوكة للجميع.

دفعتني الخبرة المباشرة أن أكتب عن النزاع الناشئ. تكفل اشتداد الصراع بجعل المفاوضات السياسية الدائرة حول عملية الإنشاء واضحة في منطقة تحكمها خلية نحل من الفصائل المتنافسة. كانت هذه الفصائل في الأغلب ميليشيات حرب تحولت بعد نهاية الحرب إلى تنظيمات دينية-سياسية مستمرة في حكم البلد. وفي لبنان لا يطبق قانون البناء بشكل متسق، ولا يستدعى إلا عند التنازع على إنشاءات غير قانونية.[[9]](#footnote-8) وهكذا سرعان ما أصبح تحدي التوسعات غير القانونية في البناية المجاورة عملية سياسية تقسم الناس على أساس طائفي. فبانخراط الأحزاب، تلقى الناس الذين قاوموا البناء غير القانوني - ومن بينهم أهلي - تهديدات. وفي النهاية، أزيلت المخالفات، فقط لأن الكفة السياسية في تلك اللحظة مالت لصالح التنظيم الديني-السياسي الذي أيد إزالتها.

أثناء شهودي المفاوضات والتهديدات من غرفة معيشة أهلي تتوالى، كنت مقتنعة بأن سردا إثنوغرافيا ذاتيا لهذا النزاع يمكنه أن يبين قنوات السلطة الدقيقة التي حولت مناطق حزام بيروت إلى مناطق حدودية للنمو الحضري والعنف الطائفي. غير أنني حين بدأت تدوين روايتي على الورق، أصابني بالتوتر وصفي لأشكال النزاع اليومية هذه دون إفشاء تفاصيل من شأنها الإضرار بسلامة أهلي في مكان نترقب فيه دائما نشوب عنف طائفي. وكان ما جعل عملية الكتابة أصعب هو القلق من أن تتسبب الكتابة عن هذه التجربة يوما في حلقة تهجير أخرى لأهلي.

هذا القلق ليس بغير أساس ولا بعيدا عن الواقع. في مايو ٢٠٠٨، اضطر أهلي لترك شقتهم مؤقتا إذ استعرت المعارك في الشوارع. وأهلي، ككثير من اللبنانيين، مدربون جيدا على هذا النوع من المواقف. فهم يعرفون بالضبط ما ينبغي ضبه: الجوازات، والمجوهرات، والنصوص الدينية، والأوراق الرسمية المهمة بما في ذلك حجج الأملاك والوصايا. والحقيقة أن أسرا كثيرا لديها حقائب جاهزة بهذا الشكل، استعدادا للمغادرة في أية لحظة. وفي ٢٠٠٨، تعين عليهم المرور بنقاط تفتيش ميليشاوية حيث كانت الفصائل المتناحرة تفحص هويات الناس—وهي أفعال تذكر بالحرب الأهلية عندما قتل الناس في نقاط التفتيش بناء على الديانة الواردة في هوياتهم. أشباح خبرات الماضي هذه تخيم بظلها الطويل كلما اندلع العنف.

كما تلقي بظلها كلما كَتبت عن المنازعات على الأرض بين التنظيمات الدينية-السياسية المختلفة إذ تتوالى فصولها في حزام بيروت. كانت الكتابة عن العنف وترقبه تقتضي الكتابة وإعادة الكتابة، الكتابة والحذف، في محاولة لتبيُّن كيفية إظهار عنف عملية التمدين، كيفية التعبير عن معاناة الناس وتجريدهم من ملكيتهم أثناء تحرير قصصهم وتخليصها مما قد يعرضهم لحلقات جديدة من التهجير. استهلكتني المشاق المحيطة بطريقة الكتابة عن العنف من الداخل دون تعريض مصادري تعريضا محتملا لعنف مستقبلي.

وعبر السنوات، أدركت شيئا فشيئا أن العنف الذي أدرسه ليس به رابحون وخاسرون، وأن الخطوط الفاصلة بين المعتدين والضحايا ملتبسة. تنقلب الطاولات باستمرار: معتدي اليوم ضحية الغد. ونتيجة لذلك، شرعت في الكتابة من زوايا مختلفة في آن معا تخص المتورطين في الصراع على الأرض؛ وهذه مهمة صعبة عند الكتابة عن موضوعات مشحونة كعمليات بيع الأرض للشيعة في مناطق درزية أو مسيحية سابقا، وفي أماكن بلغ فيها العداء على أسس طائفية ذروته. ولم يكن هدفي إسناد العنف وعقابيله إلى أي فاعلين محددين وإنما فحص الكيفية التي يستخدم بها الفاعلون كلهم التخطيط والإسكان والأسواق العقارية كأدوات لتشكيل جغرافيات بيروت المتنازع عليها، بالتركيز على المعاناة الواقعة على حياة الناس اليومية بغض النظر عن انتماءاتهم الطائفية والسياسية.

ويدور تحدٍّ آخر حول إمكانية أن تعيد عملية التنقيب عن خبرات الحرب إنتاج أشكال جديدة من العنف. روى لي مصادري خبراتهم مع الحرب. وما زال بعضهم يحمل ندوبها على أجسادهم المبتورة والمشوهة، ويبقى غيرهم مسكونا بالكوابيس. فقد كثيرون أحباءهم، وصور هؤلاء معلقة على جدران غرف معيشتهم. اضطر آخرون إلى العيش في مساكن مقامة مؤقتا لثلاثين عاما قبل أن يتمكنوا من العثور على سكن ثابت من جديد، بينما لم يتمكن البعض أبدا من العودة إلى بيوتهم. وصف الناس تجاربهم وصفا حيا كما لو كانت قد حدثت لتوها، بكثافة أوحت بأن الناس، بمن فيهم أهلي، كانوا يعيشون من جديد ألم الحرب عن طريق الحكي عنه. كثيرا ما جاهدت لأحدد ما إذا كانت عملية الحكي هذه تطهيرية أم ببساطة تسبب دورات جديدة من العنف.

هذه العملية الخاصة بإنتاج معرفة عن العنف من الداخل تشكلها أيضا تحديات تقديم عمل كهذا في المجال العام، "في الديار" وداخل المجتمع الأكاديمي الأوسع في آن معا. في ٢٠١٠، عند تقديمي عملي في بيروت للمرة الأولى، غلبني التوتر بشأن كيفية تلقيه. كنت أقف هناك أمام مدرج مليء لأتحدث عن نزاع الأرض بين حزب الله الشيعي والحزب الاشتراكي التقدمي الدرزي، وهو موضوع كان كل شخص في القاعة صاحب رأي حوله. كانت البلد ما زالت تتعافى من معارك ٢٠٠٨ الناشبة بين الجماعتين. وباعتبار أصولي العائلية، انفعلت قلقا من يرميني أحد من الجمهور بالانحياز ضد حزب الله؛ أو أن أدان لقلة تعاطفي مع محنة "قومي"، وهم أقلية دينية. وإذ أتحدث في عالم تشكله السرديات المهيمنة عن الحرب على الإرهاب، راودني قلق مشابه بشأن تقديم عملي أمام جمهور أكاديمي أمريكي يحضر حزب الله عند كثرة منه ببطاقته التعريفية الغربية بوصفه "تنظيما إرهابيا". غير أن الكتابة من داخل بيروت تقتضي مناقشة حزب الله بوصفه مجرد فاعل لبناني آخر يمثل فئة كبيرة من المواطنين اللبنانيين. كان تحديا غير هين أن أقوض التوصيفات الغرائبية والاختزالية لكي أبدأ خوض حوار حول أناس يعيشون حياتهم في أماكن حقيقية. ومن الجلي أن الكتابة عن العنف من الداخل تصبح مشروعا ينطوي على انفعالات توتر محلية وعالمية إزاء الأماكن التي وسمت دائما بأنها "خطرة" لكنها - برغم تواريخ العنف فيها - وطن لكثيرين.

# لقاءات جنوبية-جنوبية

كدارستين أكاديميتين لأمريكا اللاتينية والشرق الأوسط لديهما اعتبارات شخصية عميقة تتعلق بالأماكن التي نكتب عنها، رجاؤنا أننا بنظر إحدانا في عيني الأخرى، سيتسنى لنا الالتفاف على النظرة المركزية الأوروپية التي عادة ما تصاحب دراسات العنف في جنوب العالم، وسنستطيع تجاوز إضفاء الغرائبية على العنف واختزال الموضوعات والأماكن إلى وسمها بأنها "خطرة". ونفضل أن نخلق في مكانها فضاءات بها أخذ وعطاء جنوبي-جنوبي حول الجوانب الرتيبة للعنف والحيوات المزدهرة التي يبنيها الناس كل يوم في هذه الأماكن. ولهذه الغاية، يلقي هذا المقال نظرة أكاديمية مقلوبة تتحدث إلى الشمال ردا عليه، مسائلة افتراضاته، وملقية الضوء على حدوده. قمنا بذلك عن طريق إظهار العمل الفكري والعاطفي الذي تتطلبه الكتابة عن العنف من الداخل، ويتطلبه الحفاظ على الصدق مع مصادرنا بينما نخاطب جماهير بعيدة جدا عن تلك السياقات.

من المهم تكرار أن هذا الاشتباك الفكري الجنوبي-الجنوبي بدأ كتمرين تربوي. أمدنا الفصل الدراسي بفرصة لشق فضاء استنطقت فيه محادثاتنا الأسبوعية تلك المعرفة التي تُنتَج عن أمريكا اللاتينية من موشور تحليل الشرق الأوسط والعكس بالعكس. ثبت أن هذا المنهج مثمر في تخيل سيناريوات مستقبلية مختلفة في لحظة يبدو فيها أفق السياسة التقدمية آخذا في الانغلاق حول العالم. وهذه المقاربات التربوية محورية لزحزحة مركزية إنتاج المعرفة الخاصة بالهيمنة وتوليد مقاربات مختلفة لفهم العالم. ونعتقد بشدة أن هذه الأنواع من التجارب يجب تشجيعها وجعلها أكثر شيوعا على غرار بقية الجهود التي تسهم في هذه القضية، ليس فقط لأسباب معرفية، وإنما للاستجابة بشكل أفضل للإلحاح السياسي الذي تمثله لحظتنا التاريخية.

1. طالعنا، على سبيل المثال، Salwa Ismail, *Political Life in Cairo’s New Quarters: Encountering the Everyday State* (Minneapolis: University of Minnesota Press, 2006)، وSteven Gregory, *The Devil Behind the Mirror: Globalization and Politics in the Dominican Republic* (Berkeley: University of California Press, 2007)، وFarha Ghannam, “Mobility, Liminality, and Embodiment in Urban Egypt,” *American Ethnologist* 38/4 (2011). [↑](#footnote-ref-0)
2. Keisha-Khan Y. Perry, *Black Women against the Land Grab: The Fight for Racial Justice in Brazil* (Minneapolis: University of Minnesota Press, 2013), Eyal Weizman, *Hollow Land : Israel’s Architecture of Occupation* (New York: Verso, 2007). [↑](#footnote-ref-1)
3. Fernando Coronil, *The Magical State: Nature, Money, and Modernity in Venezuela* (Chicago, IL: University of Chicago Press, 1997), Ahmed Kanna, *Dubai, The City as Corporation* (Minneapolis: University of Minnesota Press, 2011). [↑](#footnote-ref-2)
4. Lin Noueihed and Alex Warren, “The Media Revolution,” *The Battle for the Arab Spring: Revolution, Counter-Revolution and the Making of a New Era* (New Haven: Yale University Press, 2012). Fernando Coronil, “The Future in Question: History and Utopia in Latin America (1989–2010),” *Business as Usual: The Roots of the Global Financial Meltdown*, eds. Calhoun et al. (New York: NYU Press, 2011). [↑](#footnote-ref-3)
5. انعقد الفصل في كلية هامپشير والتحق به طلبة من كلية سمث، وكلية ماونت هوليوك، وكلية آمرست. [↑](#footnote-ref-4)
6. Lamia Moghnieh, “‘The Violence We Live In’: Reading and Experiencing Violence in the Field,” *Contemporary Levant* 2/1 (2017). [↑](#footnote-ref-5)
7. Roosbelinda Cárdenas, “’Thanks to My Forced Displacement’: Blackness and the Politics of Colombia’s War Victims,” *Latin American and Caribbean Ethnic Studies* 13/1 (2018). [↑](#footnote-ref-6)
8. Hiba Bou Akar, *For the War Yet to Come: Planning Beirut’s Frontiers* (Palo Alto, CA: Stanford University Press, 2018). [↑](#footnote-ref-7)
9. Marieke Krijnen and Mona Fawaz, “Exception as the Rule: High-End Developments in Neoliberal Beirut,” *Built Environment* 36/2 (2010). [↑](#footnote-ref-8)